عناصر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي

بقلم : الدكتور يحيى الجبوري

« ١ »

يكثر التصوير في الشعر الجاهلي كثرة واضحة ، وبخاصة في الوصف حيث يرسم الشاعر مناظر ومشاهد رائعة مكتملة الجوانب ، فهو يُلِمُّ بالصورة الماماً ، ثم يدقق في اجزائها ، ويحصر أطرافها ، ويستقصي جوانبها وهذا ـ لا شك ـ دليل التمكن في الفن والدقة في التعبير وخصب الخيال ، فالشاعر الجاهلي يرسم لوحات كاملة يعني بكل تفاصيلها واجزائها على الرغم من ايجازها . ولعلك تذكر معلقة لبيد ووصفة الديار المقفرة ، فهو يصف الرسوم الدارسة ويحدد مواقعها ويشبّه آثارها ويؤكد قدمها ، وما مر عليها من اشهر طويلة وكيف تعاقبت عليها الرياح والامطار ونبتت الاعشاب وزكا الجرجير البرى ، وولدت الظباء والنعام والنعاج وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من امهاتها ، على شاكلة قوله[1] :

عفت الديار محلّها فمُقامُها بمنىً تأبّدَ غَوْلُها فرجامُها
فمدافعُ الرَّيّان عُرّيَ رسمُها خَلَقاً كماضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامها
دِمَنٌ تجرَّمَ بعد عهد أنيسِها
حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُها وحرامُها

---

(١) ديوان لبيد ص ٢٩٧ـ٢٩٩ ط الكويت .

رُزِقَتْ مرابيعَ النجوم وَصَابَها
وَدْقُ الرَّوَاعدِ جَوْدُها فرهامُها
من كلِّ ساريةٍ وغادٍ مُدْجِنٍ
وعشيَّةٍ متجاوبٍ ارْزامُها
فَعَلاَ فروعُ الأيْهقانِ وأطْفَلَتْ
بالجَهْلتين ظباؤها ونَعامُها
والعينُ ساكنةٌ على أطلائها
عَوذاً تأَجَّلُ بالفضاء بهامُها
وجلا السيولُ عن الطلول كأنّها
زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها
أو رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نؤُورُها
كِفَفاً تَعَرَّضَ فوقهنَّ وِشامُها

فقد جمع لبيد في صورته هذه كل ما يمكن ان يجمع في الصورة المتقنة ، وقرّ لها عناصر أصيلة لازمة لجمال المشهد من ذكر الزمان والمكان والماء واللون والنبات والحركة في الحيوان والصوت في رعود السحب وهكذا نجده يدقق في رسم صوره ، ثم هو لا يكتفي بهذا التدقيق بل يتقن صوره ويحققها ويستكمل كل جوانبها ، ترى ذلك واضحا في هذين البيتين اللذين يصفان حمار الوحش وأتانه وهما يعدوان فيثيران سحابة من غبار ، وتأمل كيف دقق وتأنق وحقق : (٢)

فتنازعا سَبِطاً يطير ظلالُه
كدخان مشعلة يُشَبُّ ضرامُها
مشمولة غلثت بنابت عرفج
كدخان نار ساطع أسنامُها

---

(٢) ديوان لبيد ص ٣٠٦

فقد صور الغبار المثار بينهما بغلالة رقيقة يتنازعانها ، وشبه هذا الغبار بدخان نار مشبوبة الضرام ، وقد كملت الصورة في البيت الاول ولو شاء لاكتفى بها ووقف عندها ، ولكنه اراد أن يفصل في هذا التشبيه ويتقنه ويبيّن ان هذه النار قد اوقدت بنبات العرفج الطري الذي يثير الدخان الكثيف ويزيد لهب النار بحيث تسطع أعاليها ، وان ريح الشمال تمر عليها فتزيد من ضرامها وسطوعها .

وهذه الصورة الدقيقة عند لبيد قريبة من صورة أبي خراش الهذلي لحمار الوحش وأتنه ، وذلك في قوله : (٣)

أرى الدهرَ لا يبقى على حدثانه
أقبُّ تُبَاريه جَدائدُ حولُ
ابَنَّ عقافاً ثم يَرْمَحْنَ ظَلْمَهُ
اباءً وفيه صولةٌ وذَميلُ
يَظَلُّ على البَرْزِ اليَفاعِ كأنه
من الغارِ والخوفِ المُحِمِّ وَبِيلُ
وظَلَّ لها يومٌ كأن أُوارَه
ذكا النارِ من فَيْحِ الفُروغِ طَويلُ
فلما رأينَ الشمسَ صارت كأنها
فُوَيْقَ البضيعِ في الشُعاع خَميلُ
فَهَيَّجها وانشامَ نَقْعاً كأنه
اذا لَفَّها ثم استمرَّ سَجيلُ
منيباً وقد أمسى تَقَدَّم وِرْدَها
أُقَيْدِرُ مَحْمُوزُ القِطاعِ نَذيلُ

---

(٣) ديوان الهذليين ص ١١٧ - ١٢١ القسم الثاني ط دار الكتب المصرية ١٩٤٨ .

فقير سيء الحال • وحين تقذف الحمر نفسها في الماء يصف هذا الماء فهو آجن قد فسد وقد علاه نبات طويل أخضر • ثم يمثل حركة ايديهن تفج الماء وهي عائمة • ويُعَيِّن موضع الحمار من انائه فهو وراءها أقرب الى الصياد منها وكان ذلك سببا في اصابته دونها • ولا ينس الشاعر ان يصف السهم الذي كانت رميته مصمية ، فهو سهم كبير عريض النصل •

هذا الشمول في الوصف والتدقيق في الصورة والعناية بالجزئيات والتفاصيل كل ذلك دليل على عناية الشاعر في رسم الصورة كي تأتي كاملة ناضجة معبرة ، وهذه العناية من ابرز صفات الصورة عند فحول الشعراء ومجيديهم •

والملاحظ في أكثر القصائد التي تتناول وصف الحيوان وبخاصة حمار الوحش والاتن والبقرة الوحشية والثور والناقة والفرس ، وصراع الثور او البقرة مع كلاب الصيد ، الملاحظ ان الشاعر يعني بتصوير الاحوال النفسية لهذه الحيوانات ، فهي دائما خائفة مذعورة حذرة تتسمع حركة الصياد وكلابه فتجد في الهرب او تنشط في القتال ، فاذا انتصرت خرجت مزهوة باسلة واذا فقدت وليدها ظلت ترزم وتتردد في مواضع الهلكة • حزينة ولهى علّها تجد وليدها ، ولكن هيهات فقد غدا مزقاً واشلاءً معفّرة بالتراب •

- ٢ -

وهذا الوصف الحسي المادي فيه تجسيم وتشخيص للغرض الذي يريده الشاعر ، وفيه جلاء للصورة وتوضيح لجوانبها ، وقد اقتضى ذلك عناية بالاجزاء والتفاصيل ، واهتماما كثيرا بالتشبيه وعرض صور كثيرة للمشبه به بحيث يدعو ذلك الى الاستطراد والخروج عن الاصل ، وجاءت اوصاف الحيوانات معنية بمظهرها الخارجي ، فطرفة حين وصف ناقته صورها دمية واضحة الاعضاء ، لم ينسَ منها جزءاً ولا عضواً ، ولم يغادر

عصباً ولا عرقاً دون ان يصفه ، فهو رسام بارع ينقل صورة ناقته بأعضائها وقسماتها الجسمية تجد كل ذلك في قوله من المعلقة : (٤)

لهـا فَخِذ ان أكمل النَّحْضُ فيهما
كأنهمـا بابـا مُنيفٍ مُمَـرَّدِ
وطَيُّ مَحَالٍ كالْحَنِيِّ خُلوفُه
وأجْرِنَةٌ لزَّتْ بدأْيٍ مُنَضَّدِ
كأنَّ كِناسَيْ ضالـةٍ يكنُفانها
وأطْرَ قَسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ
لهـا مِرْفَقانِ أفْتَلانِ كأنَّهـا
تَمُرُّ بِسَلْمَى دالـجٍ مُتَشَدِّدِ
كقنطـرةِ الرومىِّ أقْسَمَ رَبُّهـا
لتُكْتَنَفَنْ حتَّى تُشَادَ بِقَرْمَـدِ
صُهابِيَّةُ العُثْنُونِ مَوْجَدَةُ القَرا
بعيدةُ وَخْدِ الرِّجلِ مِوَّارةُ اليـدِ
أُمِرَّتْ يداهـا فَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ
لهـا عَضُداهـا فـي سقيفٍ مُسَنَّدِ
جَنُوحٌ دِفاقٌ عَنْدَلٌ ثم أُفْرِعَتْ
لهـا كتفاهـا في مُعَالًى مُصَعَّدِ
كـأنَّ عُلُوبَ النِّسْعِ في دأياتِها
مَوارِدُ مـن خَلْقاءَ في ظَهرِ قَرْدَدِ
تلاقى وأحيـاناً تَبِينُ كـأنَّهـا
بَنائقُ غُـرٌّ في قميصٍ مُقَـدَّدِ
وأتلعُ نهَّاضٌ إذا صعَّـدتْ بـه
كسكَّانِ بُوصِيٍّ بدجْلَةَ مُصْعِدِ

---

(٤) شرح المعلقات للتبريزي ط لايل ص ٤٠

وجُمْجُمةٌ مثلُ العَلاة كأنَّما
وَعَى الملْتَقَى منها الى حَرْفِ مِبْرَدِ
وخَدٌّ كقرطاسِ الشآمي ومِشْفَرٌ
كَسِبْتِ اليمانى قَدُّهُ لم يجرَّدِ
وعينان كالماويَّتَيْنِ استكنَّتا
بكَهْفَيْ حِجاجَيْ صخرةٍ قَلْتِ مورِدِ

وهكذا يمضي في وصف اعضاء الناقة وجوارحها ، الا ان هـذا الوصف ، وصف لدمية صامتة لا حياة فيها ولا حركة ، ومثل هذا الضرب عند الجاهليين كثير ، وهذا الضرب من التصوير هو الذي يعرف بوصف الهيئة ، الوصف الحسيّ المادي الذي يتناول الموصوف من الخارج .

ولكن فريقاً من الشعراء وجهوا عنايتهم الى وصف الحالة ، حالة الموصوف : سواء أكان حيوانا أم انسانا ، وصفوه وصفا داخليا صوروا فيه الحياة والحركة ، وتحدثوا عن جوانبه النفسية والعاطفية ، من حب وكره وخوف وضعف وجرأة واقدام ، صوروا نشاطه ومرحه ، حركاته وسكناته ، زهوه وخيلاءه وحتى تفكيره في بعض الاحايين ، وقد قرأت فيما مضى شعر أبي خراش الهذلي في تصوير احوال الحمار والأتن ، وأقرأ للبيد بن ربيعة قوله في وصف البقرة التي أكل السبع ولدها فراحت تبحث عنه جزعة مذعورة : (٥)

عَلَيهَتْ تردُّدُ في نِهاءِ صُعَائِدٍ
سَبْعاً تؤاماً كاملا أيَّامُها
حتى اذا يَئِسَتْ وأَسْحَقَ حالِقٌ
لم يُبْدِهِ ارضاعُها وفطامُها
وتوجَّسَتْ رِزَّ الأنيسِ فراعَها
عن ظهرِ غيبٍ والأنيسُ سقامُها

---

(٥) ديوانه ص ٣١٠ـ٣١١ .

فغدتْ كِلا الفَرْجَينِ تَحسَبُ أنه
مولى المخافةِ خلْفُها وأمَامُهـــا

فقد بين جزعها وفرقها وهي تبحث عن ولدها سبعة أيـام بلياليهـــا وتحدث عن يأسها بعد طول انتظار وطول غيبة ، وكشف عن مخاوفهـــا وهي تتوجس وتتسمع صوت الانسان ، ثم هروبها وهي مشفقة لا تدري من أين تأتيها المخاطر وتداهمها المنون .

وهكذا نجد فريقاً كبيراً من الشعراء من مثل لبيد والهذليين والاعشى وزهير يقلبون الكلام ليبينوا احوال الحيوان النفسية وما ينتابه من خوف وفزع وقلق حين يقاتل او حين يهرب من كلاب الصيد وسهام الصائد . وان لم يهملوا في هذا هيئة الحيوان فيصفوا اعضاءه وحسن شياته وهـو مذهبهم العام في الوصف .

تأتي اوصاف الجاهليين لوحات كاملة يوفرون لها كل اسباب الصور الدالة الموحية المؤثره ، فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة وحتى الصوت في كثير من الاحايين . نجد ذلك في وصف الطبيعـــة الصامتة من وصف المطر والسيل والبرق والسحاب والرمال والرياض . ونجد ذلك كذلك في وصفهم للحيوان حين يتعرضون للون بشرته وقوائمه والتماعه وسط الظلام ، وحين يصورون حركته في مرحه وعدوه فـــي ذهابه بعيداً يقضي شهور الشتاء وفي عودته ساعيا نحو الماء عند اشـــتداد القيظ ، وفي هروبه من الصياد وكلابه وفي مقاتلته هذه الكلاب وهو يفري صفاحها . وتستطيع ان تتلمس هذه العناصر كاملة في قصيدة لزهير يصف بقرة وحشية يطاردها الصياد وقد افترس السبع ولدها ، فاستطاع زهير ان يوفر لقصيدته كل اسباب الجمال والروعة ، وان يَفْتَنَّ في رســـم الالوان وبيان الحركات والمطاردة ووصف العواطف وتعييـــن مواطـــن الفجيعة قال : (٦)

---

(٦) ديوان زهير ص ٢٢٥ـ٢٢٨ .

كخنساءَ سفعاء الملاطم حُرَّةٍ
مُسافرةٍ مزءودةٍ أمَّ فرقدِ
غدت بسلاحٍ مثله يُتَّقَى به
ويؤمِنُ جأْشَ الخائف المتوحد
وسامعتين تعرف العِتْق فيهما
الى جِذْر مدلولِ الكعوب محدَّد
وناظرتين تَطْحَران قذاهما
كأنهما مكحولتان بإثمِدِ
طباها ضحاءٌ او خلاء فخافت
اليه السباعُ في كِناسٍ ومَرْقَدِ
أضاعتْ فلم تُغْفَرْ لها غَفلاتُها
فلاقت بياناً عند آخر معهدِ
دماً عند شِلْوٍ نَحْجِلُ الطيرُ حوله
وبَضْعَ لِحامٍ في اهابٍ مقدَّد
وتنفض عنها غيب كل خميلة
وتخشى رُماةَ الغوث من كل مرصد
فجالت على وحشيِّها وكأنها
مسربلةٌ في رازقيٍّ مُعَضَّدِ
ولم تدر وشْكَ البينِ حتى رأتهمُ
وقد قعدوا أنفاقَها كل مَقْعَدِ
وناروا بها من جانبيها كليهما
وجالت وإن يُجْشِمْنَها الشدَّ تَجْهَدِ
تبذُّ الأُلى يأتينها من ورائها
وإن تتقدَّمها السوابقُ تَصْطَدِ
فأنقذها من غَمْرة الموت أنها
رأتْ أنها ان تنظر النَّبْلَ تُقْصَدِ

نجـــاءٌ مُجِدٌّ ليس فيـــه وتيرةٌ
وتذ بيبُها عنهـــا بأسـحمَ مِـــذْوَدِ
وجـــــدَّت فألقت بينهـــن وبينهـــا
غبـاراً كمـا فارت دواخن غرقـــــد
بملثمـــاتٍ كالخَذاريـفِ قُوبلـتْ
اِلى جَوْشَنٍ خاظي الطريقةِ مُسْنَدِ

فهي بقرة خنساء وعلى خدها حمرة مشربة بسواد ، تنطلق فـــي الصحراء فرقة مذعورة ، تركت وليدها في كناس ، فهي في قلق واضطراب تخشى عليه غوائل الانسان وسباع الصحراء . ويصف زهير وسائل الحس والقتال فيها فيصف قرنيها كأنهما سيوف ماضية محددة ملساء ، واذنيهـــا الصغيرتين المرهفتين تتسمع بهما حركة العدو مخافة ان يفجأها فيصيب منها مقتلاً ، وعينيها الواسعتين السوداوين كانهما كحلتا بأثمد ، تتأمل بهما في حذر شديد مواطن الهلاك والخطر .

بهذا القسم من القصيدة يؤكد زهير على جانب اللون من اعضائها ، لون خدها وعينيها وقرنيها واذنيها . ثم اذا هو بلغ الجزء الثانـــي مـــن القصيدة تناول حال البقرة فأظهر خلجاتها النفسية واضطرابها وقد استعان بذلك بالحركة الجسمية الظاهرة والحركة النفسية المصورة . فهـــي مسافرة مسرعة في عودتها ، خائفة مضطربة قلقة على ولدها من ســـباع الصحراء ، وقد راعها هول المشهد ؛ مشهد ابنها حين رأته اشلاءً ومزقاً معفرة ، ودماؤه تصبغ الرمال بلونها العاتك ، والطير حوله تحجل هنـــا وهنالك ، ثم عادت تعدو في هذه الصحراء الواسعة ، وتراها كثيرة الحركة: حركة عدوها السريع ، وحركة تلفتها ذات اليمين وذات الشمال ، وحركة عينيها الزائغتين اللتين لا تستقران في موق او محجر .

ذلك أنها تخشى المهالك وتوشك ان تصيبها سهام الرماة من عشيرة الغوث ، الذين يقفون لها في كل مرصد ، يرسلون اليها سهامهم ويجرون

خلفها كلابهم تطاردها في هذا الموضع او ذاك ، وقد ايقنت ان الرماة قعدوا لها في كل مرصد وهاهي كلابهم تسد عليها المسالك فهي مسرعة تسبق الكلاب تارة وتسبقها الكلاب تارة أخرى ، وهي لا تنفك تذب عن نفسها بقرنيها الماضيين فتطعن هذا وتنوش ذاك وما زالت هذه حالها حتى نجت من براثن الموت وأنياب المنية .

وانك لتعجب من هذه المشاهد التي ملأتها الحركة ، حركة العدو والمطاردة وحركة الخوف واضطراب الاعضاء ، وحركة الكلاب المسعورة ، وحركة قوائم البقرة السريعة الرشيقة المتناسقة وهي خفيفة كخذروف الصبيان حيث تذكرنا بخذروف الوليد عند امرىء القيس في وصف فرسه : (٧)

دريرٍ كخذروف الوليد أمرَّهُ
تقلّبُ كفيه بخيطٍ مُوَصَّلِ

ثم يعود زهير مرة أخرى الى اللون فيصف لون البقرة الابيض الناصع ، وقوائمها المخططة التي تشبه ثوباً جميلا ، وقرنها الاسود والغبار الذي تثيره البقرة حين تعدو وخلفها كلاب الصيد فيعلو الغبار كأنه دخان نار شجر الغرقد .

واذا رحنا نتأمل الالوان التي يذكرها الجاهليون نجدها كثيرة فهم حين يصفون يلونون اوصافهم ، وصفو اسلحتهم وذكروا الوانها فالسيف ابيض والسهم ـ كالمنية ـ أزرق وكذلك النصل ، والقِدح احمر والرمح اسمر وكذلك الترس ، أما القوس فصفراء تارة وحمراء تارة اخرى .

أما الحيوان فقد افتنّوا في اوصافه وألوانه ، فالابل دُهْمٌ والخيل شُقْر او حُوٌّ أو كُمْتٌ ، والحمار أسود والثور ابيض ناصع البياض وأكارعه سود ، وعين البقرة سوداء حوراء كأنها مكحولة بالاثمد ، والضباع سود والغزلان عُفْر .

---

(٧) ديوان امرىء القيس ط دار المعارف ص ٢١

أما الدماء فهي حالكة عاتكة ، وجلود اعدائهم حمراء كالدم ووجوههم مشرقة كلون الماء المذهب ، والنبت أخضر في الربيع ، وأنامل الفقراء سوداء في الشتاء ، ومعاصم الفقيرات سود وكذلك قدورهم التي يحيط بها الغرثى من المرملين ، والديار غُبْر ، والاثافي سفع والاواري سود وكذلك البعر اسود كحب الفلفل .

- ٣ -

ومن تمام الصورة عناية الجاهليين بالمواضع والمنازل والديار ، وتحديدها وتعيين اماكنها ومخاطبتها ومناجاتها والحنين اليها ، وكثرة تكرار ذكرها ونسبة بعضها الى بعض من وادٍ وجبل وسهل ونجد وعين ماء ، وهذه الظاهرة لها دلالتها النفسية ، فالمنازل اوطان الشعراء وديارهم ، فيها ذكرياتهم وملاعب صباهم ومساكن أحبتهم وميادين حروبهم ومالهم فيها من غارات منتصرة او جولات غائبة . وهم لذلك حين يذكرونها يستبد بهم الجزع حين تخلو المنازل ، وتغرورق عيونهم بالدموع حين يستعيدون ذكريات ماضيهم .

وليس ذكر المنازل تقليداً سار عليه الشعراء ـ كما نعهد ذلك في الشعراء العباسيين والمتأخرين الذين تابعوا الجاهليين بعد تغير الحال وتبدل الاوطان ـ بل كان حنينهم الى الديار تعبيراً عن عواطف صادقة وذكريات عزيزة ، فهم حين يمرون على الديار يقفون وقفة ذكرى عند خرائبها القديمة وآثار احبتهم البالية بعد ان خلت منهم ، فهم يلتمسون العبرة من أفاعيل الزمان واحداث الليالي فتهز هذه المواضع عواطفهم وتستثير اشواقهم .

ولم يكن ذكر المنازل والديار مقتصراً على شاعر دون غيره او طائفة منهم دون أخرى ، بل كان أمراً شائعاً عند اكثر الشعراء ، وبخاصة في قصائدهم المطولة . فهذا لبيد في معلقته يتتبع مواضع حبيبته نوار ويبين منازلها ويحدد أماكن حلولها او مرورها ، وتراه يستمتع بذكر هذه المواضع ويلتذ حين يسميها او يشير اليها فيقول : (٨)

(٨) ديوانه ص ٣٠١ـ٣٠٢ .

مريَّـــة حلَّتْ بفَيْد وجـــاورت
أهـــلَ الحجاز فأين منـــك مرامُها
بمشـــارق الجبلـــين أو بمحجـــر
فتضمنتهـــا فـــردةٌ فرُخامُهـــا
فصـــــوائق أن أيمنت فمظنـــة
فيهـــا وحاف القهر او طلخامهـــا

ولا يكاد القارىء يمضي في قراءة أبيات المعلقة حتى تفجأه كثـــرة المواضع والديار فكأنه يأنس بذكرها وتسميتها ، وهو في كثير من شعره على هذه الحال . وكذلك كان عنترة العبسي يفعل في معلقته ، حيث بالغ في ذكر المنازل وتأنق بتحديدها ، وأحب الديار عنده ديار عبلـة حيث يقول : (٩)

يا دار عبلـــةَ بالجَـــوَاءِ تكلمـــي
وعِمي صباحا دارَ عبلـــة واســـلمي

ويسمى ديار حبيبته وديار أهله :

وتحـــل عبلـــة بالجَواءِ واهلُنـــا
بالحـــزن فالصمَّـــان فالمتثـــلم

ويقول كذلك :

كيف المـــزار وقـــد تربَّعَ أهلُهـــا
بعُنَيْزَتَيْن وأهلنـــا بالغَيْلَـــمِ

وكذلك يعني الحارث بن حلزة بالمواضع ، ولكنه لا يحدد جهاتهـــا مثل لبيد وعنترة فهو يقول في ديار اسماء : (١٠)

---

(٩) ديوان عنترة ص ١٥ ط بيروت ١٩٥٨ .
(١٠) شرح المعلقات العشر – التبريزي ط لايل ١٨٩٤ ص ١٢٥–١٢٦

بعد عهد لنا ببرقة شمّاء
فأدنى ديارها الخَلْصَاءُ

فالمحياة فالصفاح فأعلى
ذى فتاق فعاذب فالوفاء

فرياض القطا فأودية الشُر
ب فالشعبتان فالأبلاء

ولم يتخلف عن هؤلاء امرؤ القيس في هذا الضرب من العناية بالمواضع فقال في مطلع معلقته :(١١)

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسِقْط اللّوى بين الدَّخول فحومل

فتوضحَ فالمقراة لم يعفُ رسمُها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

وظهرت الديار أقل وضوحا عند زهير فقد استهل معلقته بقوله :(١٢)

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

ديار لها بالرقمتين كأنها
مراجع وشم في نواشر معصم

---

(١١) ديوانه ص ٢٨ .

(١٢) ديوان زهير ص ٤ – ٥

وعمرو بن كلثوم يتذكر أيام شربه ومواضع لهوه ببعلبك ودمشق وقاصرين : [١٣]

وكـــأس شـــــربت ببعلبـــك
واخـرى في دمشـــق وقاصـــــرينا

أما طرفة فقد اكتفى بأن يعين اطلال خولة ببرقة ثهمد : [١٤]

لخولـــة أطـــلال ببرقـــة ثهمـــد
تلوح كبـــاقى الوشم في ظـــاهر اليـــد

لم يترك الشعراء هذه الديار والمواضع التي تذكرهم باحبتهم وأهليهم وأيام صباهم ، دون ان يتشوقوا اليها ويذرفوا الدمع عندها ويسائلوها ثم تراهم يشبهونها بالوشم تارة وبالكتابة تارة اخرى . تذكر هذه المنـــازل عادة مقرونة بذكر النساء الحبيبات ، فهم يصفونهن ظاعنـات ويتابعونهـن بابصارهم ويسايرونهن بخيالهم ، فيعينون المواضع التي يمررن بها او ينزلن فيها ، ثم يصفون هذه المواضع خاوية خالية غدت مسرحاً للوحش مـــن الحيوان ، ومن البدهي ان نجد ذكر الديار مرتبطا بذكر النساء وحديثهم اليهن بذكرياتهم عن اطلالهن ، ولا تحسب ذلك اضطراباً في اذهانهم ، بل هو استجابة لدواعي البيئة وطبيعة الموضوع الذي يتناولون ، وان المعانـي يدعو بعضها بعضا ، فالوقوف على الديار يذكر بأهلها ، ووصف الديـار يوجب تحديدها وتبيين مواضعها وتسمية ما فيها من اودية وجبال وسهول وانجاد وعيون للمياه ، وكان التأمل في الديار المقفرة يدعو الى ذكر آياتها من النؤى والاواري والاثافي والثمام الذى تسد به خصاص البيوت .

ويكوّن وصف المنازل والديار جزءاً من الصورة به تستكمل جوانبها وتتم أبعادها ، فهي من خصائص الصورة العربية ، وقد كانت تجيء على

(١٣) هذا البيت سقط من معلقته بشرح التبريزي . انظر شرح الزوزني ط السعادة ص ١٢١ .
(١٤) شرح المعلقات للتبريزي ص ٣٠

الطبيعة لانها ابرز ما في البيئة واشد ارتباطا بعواطف الشعراء وذكرياتهم • أما في العصور اللاحقة فقد غدت من الامور المصطنعة الملفقة ، التي قلما تأتي عفو الخاطر ، واذا كانت الديار عند الجاهليين جزءاً من الفن ، فقد أضحت في عصور التأخر جانبا من الصناعة وركنا من اركان التقليد •

- ٤ -

وكان الشاعر الجاهلي يستعين بضروب من المجاز والمحسنات المعنوية التي تأتي عفو الخاطر دون تكلف او افتعال لاظهار الصورة بازهى حلة واجمل اسلوب ، فكان الشاعر يعنى باستقصاء القول في الوصف واستغراق التشبيه واستيفاء الصورة البيانية استيفاءً يتناول دقائقها وتفاصيلها • وكانت هذه الصور والتشبيهات مستمدة من الواقع منقولة من طبيعة الحياة ، وكانت شدة احساسه بالجمال تجمّل الصورة وتخرجها بهية رائعة • فامرؤ القيس يستمد من حياته وما فيها من سهام الميسر وسهام الصيد ليكون هذه الصورة البديعة : (١٥)

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قَلْب مُقَتَّلِ

واستمد عنترة هذه الصورة الحية الناطقة من الروض فيه الذباب الغَرِد ، كشارب سكر فترنم ، وقد لاحظ حركة ذراعيه فتذكر صورة المكب على الزناد الذي لا يوري فهو يعالجه باهتمام : (١٦)

وخلا الذباب بها فليس ببارحٍ
غَرِداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يَحُكُّ ذراعَهُ بذراعه
قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجذم

---

(١٥) ديوان امرىء القيس ص ١٣ دار المعارف وفيه (الا التقدحي) •
(١٦) ديوان عنترة ص ١٩ ط بيروت

وقد كان اولَ من فتق أساليب البيان وافْتَنَّ في عرض الصور وأكثر من التشبيهات امرؤ القيس الذي يرسل تشبيهات متتالية في كثير من أبياته على شاكلة قوله في وصف جبل ثبير حين ينهمر عليه المطر :[١٧]

كأن ثبيراً في عرانين وبلِه
كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة
من السيل والغثاء فلكة مغزل
كأن مكاكى الجواء غدية
صُبحنَ سلافا من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

يشبه امرؤ القيس ثبيراً حين احاط به السيل وتوالى عليه المطر بكبير قوم قد تزمل في ثياب مخططة . ثم تناول صورة أخرى حيث شبه رأس جبل المجيمر وقد غمره السيل وفيه الغثاء والنبات بفلكة المغزل ، وصورة أخرى هي صورة طيور المكاكى وقد فرحت بالخصب وغردت مسرورة كأنها نشوان أسكره سلاف الخمر المفلفل . ثم تناول صورة السباع وقد أغرق السيل آجامها فغرقت في لججه فبدت رؤوسها كأنها البصل البرى الذى قد نُبش .

وصور امرىء القيس هذه صور منفصلة متتابعة موجزة كل صورة تستقل بذاتها ولذلك فهي من الصور القديمة الاولى التي لم تتطور بعد فتصبح كصور زهير او صور النابغة حيث يجيد في وصف المتجردة ، يعمل خياله فيصوغ آيات من الجمال في صور زاهية تروق السمع والعين في آن واحد ، وقد حشد هذه الصور في موضوع واحد هو وصف هذه

---

(١٧) ديوان امرىء القيس ص ٢٥ـ٢٦ .

الغانية الفاتنة فراح يلتمس لها اسباب الجمال في حسنها وحركتها وجمال خلقها ، يقول : (١٨)

في اِثر غانيـــة رمتـك بسهمهـــا
فأصـــاب قلبك غير اَنْ لم تُقْصِـدِ
غنيتْ بذلك اِذ هـــمُ لك جـيرةٌ
منهـــا بعطفِ رسالـــةٍ وتـــودُّدِ
ولقـــد اَصـــابت قلبَهُ مـــن حبِّها
عن ظهر مِرْنانٍ بســـهم مُصـــرد
نظـــرت بمقلـــة شـــادنٍ متربِّبٍ
أحـــوى أحَمَّ المقلتـــين مُقَلَّـدِ
والنظـمُ في سلكٍ يُزَيِّنُ نحرُهـــا
ذهبٌ توقَّدُ كالشهـــاب المُوْقَـــدِ
صفراء كالسَّيَراء أكمـلَ خلقُهـــا
كـــالغصن في غُلَوائـــهِ المتأوِّدِ
والبطنُ ذو عُكَنٍ لطيفٌ طَيُّـــهُ
والاتْبُ تنفُجـــهُ بثَـدْيٍ مُقْعَـدِ
محطوطةُ المتنين غـــير مُفاضـــةٍ
ريَّا الرُّوادفِ بَضَّـــةُ المتجـــرَّدِ
قـــامت تراءى بـــين سجفَيْ كِلَّةٍ
كالشمس يوم طُلُوعِهـــا بالأســـعُدِ
اَو دُرَّةٍ صَدَفِيـــةٍ غَوَاصُهـــا
بَهِجٌ متى يَرَهـــا يُهِلُّ ويسجُدِ

---

(١٨) ديوان النابغة ص ٣٩ـ٤٠ ط بيروت ١٩٦٣

أَو دُمْيَةٍ من مرمرٍ مرفوعةٍ
بنيت بآجُرٍّ تُشادُ وقَرْمَدِ
سقط النصيف ولم تُرِدْ اسقاطَهُ
فتناولتْهُ واتَّقَتْنَا باليدِ
بمخضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنانَه
عَنَمٌ يكادُ من اللطافة يُعقَدُ
نظرت اليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم الى وجوه العُوَّدِ
تجلو بقادمتَيْ حمامة أيكةٍ
بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بالاثْمِدِ
كالاقحوانِ غداةَ غِبِّ سمائه
جَفَّتْ أعاليه وأسفَلُه ندى[19]

فقد وفق النابغة في اظهار بهاء المتجردة وحسنها بتشبيهها بالشمس يوم طلوعها بالاسعد ، وهو برج الحمل حيث تكون الشمس بين غلائل من السحب الشفافة فتبدو في أزهى صورة وأجمل منظر ، وكذلك المتجردة حين تظهر بين سجفي الستر ، ثم يشبهها بالدرة تألق بين صدفتين ، أو دمية من مرمر ابيض ناعم ، ثم يتناول وصف ثناياها البيض البراقة ولثاتها الحمراء العاتكة كأنها البرد ، او كأنها الاقحوانة بللها الندى ، وهكذا يرسم الشاعر الصورة بما يهيىء لها من اسباب التشبيه بصورة اخرى تظهر للقارىء جمالاً من مقارنة الصورتين وابراز الحسنيين .

واذا جئنا الى زهير نجده يعرض الصورة ثم لا يتركها حتى يستكمل جوانبها ، يلح عليها ويفصل في انحائها ويستوفي جوانب الحسن فيها ،

---

(١٩) هذا المعنى من بيت طرفة في معلقته :
وتبسم عن المى كان منوراً تخلل حر الرمل دعص له ند

نلمس ذلك في وصف هذه المرأة اذ يقول : [٢٠]

تنازعها المها شبها ودر الـ
نحور وشاكهت فيها الظباء
فأما ما فويق العقد منها
فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة
وللدر الملاحة والنقاء

فزهير في البيت الاول يعقد الصلة بين جمال صاحبته وجمال بقر الوحش والظباء والدر ، ونراه في البيت الاول يقدم صورة مجملة ثم يذهب الى تفصيلها واستيفاء محاسنها في البيتين الاخرين ، وقد اعجبت هذه الصورة القدماء ومنهم ابن قتيبة[٢١] وما زالت تستحوذ على أعجاب المتذوقين من المتأخرين .

واذا وصلنا الى لبيد في نهاية العصر الجاهلي ، نجد صوره متقنة شديدة العناية كثيرة الاتقان ، نرى ذلك في هذه الابيات التي يصف فيها ثوراً تطارده كلاب صياد ضامر البطن كالذئب ، والثور يجد في قتال هذه الكلاب ، قتال القائد الذي يذود عن حماه ويحمي اصحابه ، فهو يطعن بقرنيه المرهفين كأنهما أسنة قاطعة ، حتى تنجلي المعركة عن صرعى مضرجة بالدماء كأنها اوعية مملوءة دما ، والدم يتفصد من جوانبها :[٢٢]

فعدا على حذر مورث عدة
يهتز فوق جبينه رمحان
حتى أُشِبَّ له ضراء مكلب
يسعى بهن أقبُ كالسرحان

---

(٢٠) ديوان زهير ص ٦١-٦٢
(٢١) الشعر والشعراء ص ٥٨ ط اوربا
(٢٢) ديوان لبيد ص ١٤٥-١٤٦

فحمـــى مقـــاتله وذاد بروقـــــه
حَمْىَ المحارب عـــورة الصحبـان
شزراً عـلى نبض القلـوب ومقدمـا
فـــكأنما يختلهـــا بســـنان
حتـى انجلت عنـه عمـاية نفـــره
فـــكأن صرعاهـــا ظروف دنـــان

هذه الصور جميعها كان عمادها التشبيه ، وجمال التشبيه وبلاغتـــه أنه يعرض صورتين يربطهما التماثل ، ويزداد جمال التشبيه اذا كانـــت الصورتان نادرتين يتطلب استحضارهما خيال بارع وذهن خصيب .

والصور التى مرت على العموم بسيطة غير مركبة ، سهلة غير معقدة ، ذلك أنها اتخذت التشبيه وسيلة ، والمقارنة بين شيئين أو صورتين سبيلا .

وهناك صور أخرى أكثر دقة وابعد خيالاً والصق بالفن والشاعرية ، تلك الصور التى عمادها الاستعارة والكناية . واذا كان التشبيه يمثل طور البداية وهو اول مراحل التصوير ، فان الاستعارة تمثل مرحلة النضـــج والدقة الفنية وقوة التصوُّر ذلك ان الاستعارة قائمة على تناسـى التشـبيه ولذلك فعمادها قوة التصور والخيال البعيد . والاستعارة الجيدة لذلـك لا تأتي لكل الشاعرين ولا لكل القائلين . فقلَّت في الشعر الجاهلـى ، وقد ذهب ابن وكيع[٢٣] الى ان اول استعارة جاءت في الشعر الجاهلى قول امرىء القيس :[٢٤]

وليـلٍ كموج البحـر أرخى سُـــدوله
عـلىَّ بأنـــواع الهمـــوم ليبتـــلى
فقلت لـــه لمـــا تمطى بصلبـــه
وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكـلِ

---

(٢٣) العمدة ١/٨٦
(٢٤) ديوانه ص ١٨ وفيه (غطى بجوزه) والرواية المشهورة (بصلبه)

فانظر الى هذا التخيل وكيف جعل للغداة زماما ، وللشمال يداً تتحكم بزمام الغداة .

ويقف عند منظر غروب الشمس وحلول الظلام فيقول : [٢٨]

حتى اذا ألقت يداً في كافرٍ
وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

فقد القت الشمس يدها في الليل وهو الذى سماه كافراً اي ساتراً .

وصور لبيد التي تقوم على الاستعارة كثيرة ، وهى من النوع الذى يسميه البلاغيون بالاستعارة المكنية ، وهي اعز مطلبا وابعد منالا من التصريحية ، وسر الجمال فيها هذا الخيال البعيد الذى لا يتأتى الا للشعراء القادرين المبدعين .

وكذلك نجد استعارات جميلة عند فريق من الشعراء مثل أوس بن حجر في قوله :

وانى امرؤ اعددت للحرب بعدما
رأيت لها ناباً من الشر اعصلا

وعند طفيل الغنوى في وصف ناقته :

وجعلت كورى فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرحل

وقول النابغة في طول الليل :

تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وغير ذلك كثير في أشعار الجاهليين .

---

(٢٨) الديوان ص ٣١٦ .

وكما عبروا عن الصور الجميلة بالاستعارة فقد عبروا عنها بالكناية وهى اسلوب من التعبير يعتمد على ايجاز العبارة او ادماج اجزائها .

وهي كما يقولون : واسطة للابانة عن اللازم والملزوم جميعا باللازم وحده . واجادة التعبير بالكناية دليل على براعة الشاعر في صياغة معانيه باسلوب رفيع ، وعبارة موجزة دالة ، فيها ضرب من الجمال لا يتأتى اظهاره بدونها ، يقول النابغة في رفاهية الغساسنة وعفتهم : (٢٩) .

رقاق النعال طيّبٌ حجزاتُهم
يُحَيَّوْنَ بالريحان يوم السباسب

ويقول في وصف امرأة مخدرة مخدومة:(٣٠)

ليست من السود اعقابا اذا انصرفت
ولا تبيع بجنبى نخلة البُرَمَا

اما لبيد فيقول في ذكر الموت :(٣١)

وكل أناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفرُ منها الأنامل

ويعبر عن كثرة فرسان قومه في بنى جعفر : (٣٢)

ولقد أراني تارة من جعفر
في مثل غيث الوابل المتحلب

ويخاطب عنترة حبيبته عبلة بانها هي التي جعلته يدلج في ظلام الليل قبل ان ينبثق ضوء الفجر فعبر عن تبكيره بان القطا البيض لما تنهض بعد من عدوتى الوادى : (٣٣)

---

(٢٩) ديوانه ص ١٢ .
(٣٠) ديوانه ص ١٠١
(٣١) ديوانه ص ٢٥٦
(٣٢) ديوانه ص ١٥٧
(٣٣) ديوان عنترة ص ٢٠٧

وانت التي كلفتني دَلَج السُّـــرى
وبيض القطـــا بالجهلتين جثـوم

أما صورة الاعشى ففيها دقة وابداع ، يقول في سرعـــة ناقته وقت الظهيرة : (٣٤)

بجُلالـــة سُرُحٍ كـــأن بدفهـــا
هراً اذا انتعـــل المَطِيُّ ظِلالَهَـــا

وهكذا نجد الشعراء الجاهليين لم يتركوا جانبا من جوانب التعبير الفنى والتصوير البديع الا طرقوه وأفادوا منه سواء أكان ذلك باستعمالهم وسائل التحسين البيانية المعنوية ام المحسنات البديعية اللفظية وكلها تدعم الصورة وتملأ جوانبها حسنا وجمالا .

يحيي الجبورى

---

(٣٤) ديوان الاعشى ص ٢٧ ط محمد حسين . وبيت الاعشى شبيه بقول عنترة :

وكأنما ينأى بجانب دفها الـ ـوحشى بعد مخيلة وترغم
هر جنيب كلما عطفت لـــه غضبى اتقاها باليدين وبالفم

التربية وعلم النفس